

الأثر السياسي والعسكري لعلماء المالكية في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي (567-923هـ/1171-1517م)

*The political and military impact of Maliki scholars in Egypt and the
Levant during the Ayyubid and Mamluk eras(567-923 AH /1171-1517AD)*

د. رمضان فوزي

جامعة عمار تليجي-الاعواط-الجزائر f.ramdani@lagh-univ.dz

تاريخ الإستلام: 2021 / 08 / 25 تاريخ القبول: 2021 / 09 / 22 تاريخ النشر: 2021 / 12 / 30

ملخص:

يُسلط هذا المقال الضوء على النشاط السياسي والعسكري لعلماء المالكية في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، من خلال الأعمال الرسمية التي مارسوها كتنقلهم في الخدمة السياسية والمناصب المتعددة العليا التي أفضت بهم إلى التعامل مع مجتمعهم وخدمته، فضلا عن انتسابهم للجيش في بعض الظروف، كل ذلك أبرز -بوضوح- الحضور المالكي على الصعيد السياسي والعسكري . ونشاط علماء المالكية في مصر والشام خلال الحقبة المحددة أعلاه، لم يقتصر على الأعمال التي هي من صميم اختصاصهم كتعلم العلم ونشره، وإمامة الناس في الصلوات وغيرها، بل تجاوزوها، حيث تفاعلوا مع قضايا الأمة، فحفظت لهم كتب التاريخ مواقف مشرفة، وسجلت أسماءهم بماء الذهب. الكلمات المفتاحية: الدور العسكري؛ الدور السياسي؛ الشام؛ العصر الأيوبي؛ العصر المملوكي؛ المالكية؛ مصر.

Abstract:

This article sheds light on the political and military activity of the Maliki scholars in Egypt and the Levant during the Ayyubid and Mamluk eras, through the official actions they practiced, such as their volatility in political service and the various high positions that led them to deal with and serve their community, as well as their affiliation with the army in some circumstances, all of that The most prominent - clearly - Maliki's presence on the political and military level.

The activity of Maliki scholars in Egypt and the Levant during the period specified above, was not limited to the works that are at the core of their specialization, such as learning and spreading knowledge, leading people in prayers and others, but rather they exceeded them, as they interacted with the issues of the nation, so the history books preserved honorable positions for them, and their names were recorded in gold water.

key words: military role; political role; Levant; Ayyubid period; Mamluk era; Malikiyah; Egypt.

مقدمة

مما لا شك فيه أن للعلماء الدور والأثر الكبير في أي مجتمع، إذ هم النُخبة فيه والشُّعلة التي تنير لها الطريق، ومن هذا المنطلق فقد كان لعلماء المالكية الأثر البالغ والمشاركة الفعالة على جميع الأصعدة في مصر والشام، في ظل الظروف التي صاحبت الدولتين الأيوبية والمملوكية، واللتان لقوا فهما من الدفع والتشجيع ما بوأهم مكانة خاصة لدى الحكام الأيوبيين والمماليك من جهة، والمجتمع المصري والشامي من جهة أخرى، وأشير هنا إلى أنني قد قمت سابقا في مرحلة الدكتوراه بدراسة الإسهامات العلمية للمالكية في مصر والشام خلال العصر المملوكي، فكانت تصادفي مادة علمية معتبرة للأثر السياسي والعسكري لهؤلاء العلماء على غرار نشاطهم العلمي، ومن هنا جاءتني فكرة البحث في هذه الجزئية الخاصة بهم من خلال هذا المقال، فاخترت لها عنوان: الأثر السياسي والعسكري لعلماء المالكية في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي (567-923هـ/1171-1517م)، أردت من خلاله تتبع النشاط السياسي والعسكري للمالكية، من حيث مظاهره وآثاره خلال هذه الفترة التي شهدت أحداث الحروب الصليبية من جهة والغزو المغولي من جهة أخرى، وأثرت في المشرق الإسلامي بما فيه مصر والشام.

وتكمن أهمية الموضوع في أنه يعالج ويكشف الدور السياسي والعسكري للمالكية في مصر والشام خلال فترة الأيوبيين والمماليك الشافعيين الذين ساهموا في نشر المذهب السني على تعدد مذاهبه، وبيان أثرهم وتأثيرهم في المجتمع في تلك الفترة، وكذا التنقيب عن الساسة والعسكريين من علمائهم، والتعرف على مشهورهم و مغفورهم بقدر ما تجود به المصادر.

أما بالنسبة لإشكالية البحث، فإنها تتمثل في السؤال التالي: هل كان للمالكية دور سياسي وعسكري في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي؟، وما هي مظاهر وأثار ذلك الدور إن وُجد؟.

الإشكالية المطروحة والإجابة على فروعها تتبع من هنا يقوم على الاسترداد الذي يغلب عليه الوصف، وتقوم عليه الدراسات التاريخية لاسترجاع الحوادث المراد دراستها، كما اعتمدت على المنهج الإحصائي لإحصاء علماء المالكية والوقوف على أعمالهم ونشاطاتهم السياسية والعسكرية، بحكم أن الدراسة تقوم على هذه الفئة، إضافة إلى ذلك وظَّفنا المنهج النقدي التحليلي الذي يعتمد على جمع المادة ونقدها وتمحيصها، فهو مناسب لتحليل المعطيات والوصول إلى النتائج الصحيحة، واعتمدت أيضا على المنهج المقارن، لأنه بعد جمع المعلومات حول المالكية المعنيين بدراستنا نحتاج إلى مقارنتها مع ما ورد في مصادر أخرى، ثم القيام بتحليلها وتركيبها.

وبالنظر إلى طبيعة الموضوع والأهداف المرجوة منه، رأيت تتبع خطة عمل مكونة من خمسة عناوين رئيسية هي: أولا: الخدمة في الدواوين، ثانيا: السفارة للسلطين، ثالثا: الوزارة لدى السلطين، رابعا: المشورة والنصح للحكام والسلطين: خامسا : الخدمة في الجيش الأيوبي والمملوكي والجهاد في سبيل الله، وأخيرا خاتمة ضمّتها أهم النتائج المتوصل إليها من هذا المقال.

وأشير ابتداءً قبل الخوض في ذكر تفاصيل البحث، أنني عثرت على كلام رائع لأحد المؤرخين العلماء، وهو أبو بكر محمد بن الحسين الأجرى (ت360هـ/970م) يصف فيه فئة العلماء ميّناً مكانتها قائلاً: "الطاعة لهم من جميع الخلق واجبة، والمعصية لهم محرمة، من أطاعهم رشد، ومن عصاهم عند، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتبه عليه، حتى وقف فيه فبقول العلماء يعمل، وعن رأيهم يصدر، وما ورد على أمراء المسلمين من حكم لا علم لهم به فبقولهم يعملون، وعن رأيهم يصدر، وما أشكل على قضاة المسلمين من حكم، فبقول العلماء يحكمون، وعليه يعولون، فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر عنها الظلام أبصروا" (الأجرى، 1978م، صص 16-17)، وقد أحببت إيراده -على طوله- كما هو، لما له من انعكاس واضح على ما سأذكره في مقالي، حيث اشتمل على جميع المحاور والمعاني التي سأضرب عليها أمثلة كانت مثورة ومبثوثة في بطون المصادر التاريخية، فقامت باستلالها من مظانها، وتجميعها وترتيبها وإخراجها بالوجه الذي يليق بهذا البحث دون الإخلال بمقاصده والانتقاص من أهدافه.

فالعلماء لهم مكانة مرموقة في المجتمع، ويمثلون لبنة أساسية في تركيبته، كيف لا؟ وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم فضلهم فقال: " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم" (الدارمي، 1987م، 100/01).

ونأتي الآن إلى بيان تفصيل ما ذكرناه في خطة المقال المذكورة آنفاً، ويكون ذلك كالتالي:

أولاً: الخدمة في الدواوين:

تولى عدد من المالكية مناصب مهمة في الدولة الأيوبية بمصر والشام، فمنهم من تقلّب في الخدم وترقى فيها إلى أعلى المراتب -حسبما سنورده في هذا الجزء من المقال-، ومنهم من خدم الدولة في وظائف لم تحددها المصادر، مثل أبي العباس أحمد بن عبد الغني اللخمي المعروف بالقطرسي (ت603هـ/1206م)، فقد كان متقرباً من الملوك والوزراء وغيرهم، حيث مدح منهم جماعة، كما تقلّب في الخدم الديوانية. (المنذري، 1988م، 103/02).

والقاضي أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن الحسيني التميمي المصري (ت605هـ/1208م)، فقد كان من بيت رياة وتقدّم في الولايات والفضيلة، حيث ولي ولايات رفيعة (الذهبي، 1987م، 191/43).

وأبو الطاهر إسماعيل بن أحمد، المنعوت بالمكرم (ت638هـ/1240م)، ذكرت المصادر أنه ولي ولايات متعددة بالوجه القبلي والوجه البحري من أعمال الديار المصرية (المنذري، 1988م، 533/03).

وهناك من المالكية من تولى ديوان الأعباس، والذي يُعرف أيضاً بديوان الأوقاف يعتبر من أواخر الدواوين مباشرة، ولا يخدم فيه إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين، وموضوعها أن صاحبها يتحدث في رزق الجوامع والمساجد والزوايا والمدارس وغيرها (المقريزي، 1998م، 266/03)، بأشْر مهامه عدد من المالكية كالقاضي

أبي عبد الله محمد بن الحسن المقدسي الأصل، المصري المولد والدار (ت613هـ/1216م) (المنذري، 1988م، 373-372/02)، وأبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزيز ابن الجبّاب السعدي المصري (ت648هـ/1250م)، تولى نظراً لأحبّاس أيضاً هو وأبي القاسم عبد الرحمن بن أحمد الأموي الإسكندراني (ت652هـ/1254م)، الذي إلى جانب نظره ديوان الأحبّاس بمصر كان كاتباً، كما تقلّب في الخدم الديوانية (الحسيني، 2005م، ص226). وممن تولى خدمة الدواوين كذلك القاضي أبو المجد أحمد بن مكي الإسكندراني (ت612هـ/1215م)، حيث تولى ديوان الصعيد مدة (المنذري، 1988م، 338/02).

والقاضي الرئيس علي بن إسماعيل بن إبراهيم بن جبارة (ت632هـ/1234م) مارس خدمة النظر في الديوان، وذكر القلقشندي عن صاحب هذه الوظيفة أنه "رأس الكل وله الولاية والعزل، وإليه عرض الأرزاق في أوقات معروضة على الخليفة والوزير وله الجلوس بالمرتبة والمسند، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة، وتخرج له الدواة من خزنة الخليفة بغير كرسي وإليه طلب الأموال واستخراجها والمحاسبة عليها، ولا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة" (القلقشندي، 1987م، 566/03)، وثبت عنه خدمة الدولة الأيوبية (الذهبي، 1987م، 106-105/46)، والقاضي الرئيس علي بن إسماعيل الإسكندراني (ت634هـ/1236م)، تولى النظر مدة، وغير ذلك من الخدم، وكان محباً لأهل الصلاح والخير ساعياً في حوائجهم (المنذري، 1988م، 447-446/03).

ومن المالكية من ناب في الحكم، نذكر منهم : أبي الحجاج يوسف بن عبد الغني الإسكندراني (ت618هـ/1221م)، ناب في الحكم العزيز بئغر الإسكندرية (المنذري، 1988م، 33/03)، وكان صالحاً خيراً على حد قول المؤرخين (الذهبي، 1987م، 436/44)، والآخر هو القاضي أبو محمد عطاء الله بن منصور المالكي الإسكندراني (ت622هـ/1224م)، ذكرت المصادر أنه "ناب في الحكم العزيز بئغر الإسكندرية مدة، فكان محمود السيرة، مقبلاً على ما يعنيه، منشغلاً بخاصة نفسه، جادا في أموره (الذهبي، 1987م، 119/45).

كما خدم منهم عدد معتبر في الدواوين خلال العهد المملوكي، منهم الشيخ علي بن مخلوف بن ناهض النويري (ت718هـ/1318م)، فبعد أن امتنع عن تولي الوزارة، ولي نظر الخزانة، وكان مقرّباً من السلطان الناصر محمد بن قلاوون (حكّم بين 693-741هـ/1294-1340م) (التنبكي، 2000م، ص325).

كذلك نذكر الشيخ شرف الدين بن محمد الدماميني الإسكندري (ت803هـ/1400م)، فضلا عن توليه نظر الجيش فإنه كان ناظراً على بيت المال وناظر الأسواق والحسبة بالقاهرة، وناظر ديوان المفرد (ابن تغري، 1992م، 23/13) الذي يقوم على شؤون الديوان المختص بما أفرد من البلاد ويصرف غلتها على ممالك السلطان من رواتب وكسوة (القلقشندي، 1987م، 457/04).

ثانياً: السفارة للسلطين :

يقوم بهذا العمل السفراء، وهم الرسل المبعوثون من قبل الملك، ويتم اختيار من يشترط فيه عدة صفات كالعلم والذكاء، وحسن الخلق والنسب، وأن يكون قادراً على انجاز المهمات، بعيداً عن السهو والغفلة (جمال أحمد، 2008م، ص21).

وقد طالعنا المصادر التاريخية بأسماء بعض المالكية الذين شاركوا في إجراء الاتصالات السياسية وممارسة وظيفة السفارة، حيث اعتمد عليهم الحكام في ذلك، منهم: أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي (ت 613هـ/1216م)، اتصل بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، وقدم له كتاب "ذيل المناقب النورية" (جرجي زيدان، 70/03)، ثم تنقل في خدمة الملوك الأيوبيين، فاتصل بالملك العادل أبي بكر أخي صلاح الدين، وذكر ذلك بنفسه فقال: "كنت في خدمة مولانا العادل خلد الله ملكه بالإسكندرية سنة إحدى وستمئة مع من ضمت حاشية العسكر المنصور من الكُتَّاب، ودخلت سنة اثنتين ونحن مقيمون بالخدمة مرتضعون لأفوايق النعمة" (ابن ظافر، 1861م، ص 177-178)، ثم يقول عن نفسه كذلك: "وكننت عند المولى الأشرف أبقاه الله تعالى في سنة ثلاث وستمئة بالرها، وقد وردتُ إليه في رسالة، فأنزلي بين سمعه وبصره في بعض دوره بالقلعة بحيث يقرب إليه حضوري في وقت طلبي أو إرادة الحديث معي" (ابن ظافر، 1861م، ص 181)، وقال أيضا: "...ومررت عليه أيضا، وقد أنفذني السلطان-خلد الله ملكه- في رسالة إلى الموصل في سنة سبع وستمئة، فلما عدت أمسكني عنده نحو شهر بالرها، وجرت لي عنده بدائه كثيرة" (ابن ظافر، 1861م، ص 182).

فمما تقدّم من النصوص، يتضح لنا أنه اتصل بالسلطان العادل أبي بكر، وكان مع عسكره ضمن جملة الكُتَّاب سنة 601هـ/1204م، وأنه أرسل سفيرا بين العادل وابنه الأشرف موسى (ت 609هـ/1212م) (ابن خلكان، 1994م، 52/330-331)، سنة 603هـ/1206م وسنة 607هـ/1210م، إلى أن استقر في خدمة هذا الأخير، حيث يُصرح ابن ظافر بأنه: "كان مقيما في أواخر سنة ثمان وستمئة بنصيبين في خدمة الملك الأشرف لتدبير أحوالها وتزجية وجوه أموالها" (ابن ظافر، 1861م، ص 112).

كذلك ممن خدم الدولة الأيوبية في مجال السفارة من المعنيين بدراستنا، نذكر ابن المخيلي محمد بن يوسف الاسكندراني (ت 637هـ/1239م)، فقد توجه رسولا إلى حمص، ولكنه أدركه أجله، ولا ندري من أرسله، ولا إلى من أرسل، وكان إلى جانب ذلك قد تقلّب في الخدم الديوانية بمصر، وحران، ودمشق، وولي نظر الدواوين بديار مصر في آخر أيام الملك الكامل، وفي أيام ابنه الملك العادل (المقريزي، 1991م، 501/07).

وممن تذكرهم المصادر التاريخية في هذا الجانب خلال العصر المملوكي، الشيخ صدر الدين سليمان بن إبراهيم بن سليمان (ت 734هـ/1334م)، حيث اشتغل بالسفارة، فسافر رسولا إلى بغداد من قبل السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (ت 741هـ/1341م) (ابن حجر، 1972م، 276-277/02)، ولم نُطلعنا المصادر على تفاصيل أخرى عن سفارته.

كما حفظ التاريخ الدور الدبلوماسية والسياسي في مصر والشام خلال العصر المملوكي لِشامة المالكية المغاربة في مصر والشام الإمام العلامة المالكي والمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون (ت 808هـ/1406م)، فإلى جانب توليه منصب قاضي قضاة المالكية بالقاهرة، كان دائم التواصل مع سلطان مصر المملوكي الظاهر، حيث عمل جاهدا على ربط صلات بينه وبين سلاطين المغرب عن طريق السعي في المهادة والإتحاف بالطرف النفيسة من بلدانهم بينهم (ابن خلدون، 1979م، ص 370)، وقد استشاره السلطان الظاهر برفوق بن أنص العثماني (حكّم

بين 792-801هـ/1389-1398م)، حينما استتبأ قدوم خيل أرسل في شرائها من المغرب، فأشار عليه ابن خلدون بأن يكتب إلى سلطان تونس ولسطان تلمسان ولسطان فاس مع إرسال هدايا إليهم (ابن خلدون، 1979م، ص376)، واستصحب السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق (حكّم بين 801-808هـ/1398-1405م) له إلى الشام، ولقاؤه الأمير تُمر سلطان المغول ومحاورته له محفوظة في المصادر التاريخية (ابن خلدون، 1979م، ص406).

ثالثا: الوزارة لدى السلاطين الأيوبيين والمماليك:

بالنسبة للخدمة في هذا الجانب وجدنا من المماليكية من تولّى الوزارة، منهم أبو الحسن علي بن ظافر الأزدي (ت613هـ/1216م)، حيث يذكر المنذري بأنه ولي الوزارة للملك الأشرف موسى بن العادل، ثم انفصل عنه، وقدم مصر وتولى الوكالة السلطانية بها مدة (المنذري، 1988م، 377/02).

وممن تولى الوزارة من علماء المماليكية، وكان له الأثر البالغ والمشاركة الفعالة في تسيير دواليب الحكم، صفي الدين بن شكر (ت622هـ/1224م)، وأول عمل تقلّده هو مباشرة ديوان الأسطول الذي أقامه عليه الملك العادل الأيوبي (المقريزي، 1998م، 17/03)، ثم ترقى في المناصب حتى بلغ رتبة الوزارة، وندع ابن شاعر الكتبي يصف لنا شخصيته التي انعكست على حكمه فيقول: "كان حلو اللسان، حسن الهيئة، ذا دهاء مفرط، فيه هوج وخبث وطيش ورعونة مفرطة وحقد لا تخبو نار، ويظن أنه لا ينتقم فيعود وينتقم، لا ينام عن عدوه، ولا يقبل له معذرة ويجعل الرؤساء كلهم أعداءه، ولا يرضى لعدوه بدون الهلاك... استولى على العادل ظاهرا وباطنا، ولم يمكن أحدا من الوصول إليه حتى الطبيب و الفراش والحاجب عليهم عيون فلا يتكلم أحد منهم كلمة... وكان له في كل بلد من بلاد السلطان ضيعة أو أكثر في مصر والشام... وكان العادل يترضاه بما أمكنه" (ابن شاعر، 1974م، 194/02)، فهذه صفات هذا العالم المالكي الذي وزر للملك العادل الأيوبي، غير أن هذا الأخير قد غضب عليه، فنفاه عن مصر والشام، ولكنه عاد إلى مصر بعد وفاة العادل ووزر للسلطان الكامل الأيوبي، وأخذ في مصادرة أموال الناس (ابن شاعر، 1974م، 194/02)، وكان كما ذكر الذهبي: "خليفة للوزارة لم يتولها بعده مثله" (الذهبي، 1987م، 110/45).

ومما يذكر عنه أنه كان يتحسر على موت القاضي الفاضل الذي تمنى أن ينتقم منه، لما صدر منه-أي من الفاضل- من إهانة في حقه يذكرها ابن شاعر الكتبي: "وكان انحرافه عن الفاضل رحمه الله تعالى ما قاله الفاضل وهو: وأما ابن شكر فهو لا يشكر، وإذا ذكر الناس فهو الشيء الذي لا يُذكر، فقيل للقاضي الفاضل: ما هو الشيء الذي لا يُذكر؟ قال: الشيء الذي لا يُذكر، وتوفي الفاضل رحمه الله تعالى وقد عصمه الله منه ولم يمكنه منه، وفي ابن شاعر يقول ابن شمس الخلافة:

مدحتك ألسنة الناس مخافا ***** وتقارضت لك في الثناء الأحسز
أترى الزمان مؤخرا في مدتي ***** حتى أعيش إلى انطلاق الألسز
وقيل إنه عاش بعده وأطلق لسانه، ثم تمنى أن لا يكون قد عاش إلى انطلاق الألسن" (ابن شاعر، 1974م، 195/02).

ومن مؤامرات ابن شكر طعنه وقدحه في وزير الكامل القاضي أبو محمد، مختار بن مختار، المعروف بابن قاضي دارا (ت601هـ/1204م) عند العادل حتى نقم عليه هذا الأخير فطلبه، لولا مساعدة الكامل له على الخروج من مصر، "فخرج منها ومعه ولداه... واستصحب شيئا من المال يسيرا، وورد إلى حلب فأكرمه الملك الظاهر وأنزله" (ابن واصل، 167/03).

ونشير هنا إلى أن الجانب السياسي الذي يتميز بالدسائس والمؤامرات قد غلب على ابن شكر الذي كان من المتفهمين المالكية، بل ومن المؤلفين في الفقه المالكي، حيث صنّف كتاب البصائر (ابن فرحون، 450/01-451)، فكان حريّا به أن يُجسّد السياسة الشرعية، ويحفظ حقوق الناس وكرامتهم لا إذلالهم وتخويفهم .

وممن عُرض عليه منصب الوزارة من المالكية في الدولة المملوكية نذكر الشيخ علي بن مخلوف بن ناهض النويري (ت718هـ/1318م)، كانت له صلوات بالملك المنصور قلاوون (حكّم بين 678-689هـ/1279-1290م)، حيث عرض عليه هذا الأخير منصب الوزارة فامتنع (التنكي، 2000م، ص325)، وهذا ليس غريبا منه، فقد كان دأب العلماء الصالحين الابتعاد عن السلطان مخافة الفتنة في الدين، ويُجسد لنا هذا الخوف العالم المالكي الشاطبي القاسم بن فيرة بن أبي القاسم خلف بن أحمد الرعيبي (ت590هـ/1194م)، حيث كان ينأى بنفسه عن كل ما يُقربه من السلطان، ومع ذلك يُذكر أنه تم الاتصال به من طرف أحد الامراء فبعث إليه معتذرا:

قل للأمير نصيحة ***** لا تركنن إلى فقيه

إن الفقيه إذا أتى ***** أبوابكم لا خير فيه" (السيوطي،

260/02).

رابعا: المشورة والنصح للحكام والسلطين:

ولا ننسى في هذا البحث أن نذكر جانبا مهما عن علماء المالكية، ألا وهو علاقتهم بالحكام والسلطين، حيث أنهم كانوا مرجعا لهم يُستشارون في الكثير من القضايا، فقد كانت هناك علاقة وطيدة بين صلاح الدين الأيوبي والفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف (ت581هـ/1185م)، وكان يستشيريه ويستجيب لرأيه، حيث أسرع بتلبية رغبته أثناء زيارته له في الإسكندرية عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر، وهي ضريبة كانت تُفرض على تجارة الفرنجة الصادرة من الإسكندرية، وتوزيع حصيلتها على فقهاء الثغر وعلمائه، فيقول ابن فرحون: "وقيل إنه [أي ابن عوف] كان السبب في تجديد الصادر بثغر الإسكندرية، وهو شيء وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا من الإسكندرية، زائدا على العشر، رتبه لفقهاء الثغر، دنانير تصرف كل شهر، وجعل له ناظرا وشهودا أوقفه عليهم وعلى ذريتهم" (ابن فرحون، 292-294/01)، فأبو الطاهر بن عوف كانت له مكانة كبيرة عند صلاح الدين الذي كان يُجلّه ويحترمه، وكان إذا اعترضته مشكلة من مشاكل الدين أو الدولة أرسل إليه يسأله الرأي والفتوى، ويؤكد هذا القول ابن فرحون: "وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظم ابن عوف ويراسله ويستفتيه" (ابن فرحون، 293/01).

وذكر الصفدي إحدى المراسلات عند ترجمته للقاضي شرف الدين عبد الله بن عصرون الشافعي (ت585هـ/1189م)، حيث أضر هذا الأخير في آخر عمره أثناء توليه القضاء، وصنّف جزءاً في قضاء الأعمى وجوازه، فأرسل صلاح الدين إلى ابن عوف المالكي يستفتيه في الأمر، يقول الصفدي: "وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضي الفاضل يقول فيه: إن القاضي قال: إن قضاء الأعمى جائز، فتجتمع بالشيخ أبي الطاهر بن عوف السكندري، وتساءله عما ورد من الأحاديث في قضاء الأعمى" (الصفدي، 1911م، ص185).

ونذكر في باب النصيح والمشورة أيضاً السلطان الظاهر بيبرس (حكّم بين 658-676هـ/1260-1277م)، حيث أنه زار الإسكندرية، فانتهاز فرصة وجوده بها وقام بزيارة عالمين من علماء المالكية آنذاك، منهما الشيخ أبي القاسم بن منصور بن يحيى السكندري المعروف بالقباري (ت662هـ/1264م)، الذي نصحه بضرورة تحصين الثغر وترميم أسواره (السيد، 2008م، ص27).

وممن وقف ناصحاً ومرشداً إلى الحق في وجه الحكام خلال الفترة المعنية بدراستنا نذكر الشيخ شرف الدين أبي الروح عيسى بن شمس الدين محمد (ت854هـ/1450م)، كان قاضي قضاة المالكية ببيت المقدس، وهو مثال للقاضي العادل إذ سعى دوماً بكل صلافة ورباطة جأش إلى استقلالية القضاء والنأي به عن إرادة وأهواء الحكام، فكانت له هيبه في قلوب الناس بل والحكام أيضاً، حدثت له واقعة معروفة ماثلة في المصادر التاريخية مع نائب بيت المقدس مبارك شاه، الذي قبض على مجموعة من الفلاحين اتهمهم باللصوصية، وأراد قتلهم دون محاكمة، فوقف في وجهه الشيخ عيسى ومنعه، بل وأغلظ له في القول قائلاً: "والله لو قتلهم بحضوري لُكُنْتُ أقتلك بيدي وأعلقك إلى جانبهم كما أنت بخلعة السلطان فلم يقدر النَّائب على مرجعته لهيبته ودخل إلى المدينة ولم يستطع قتلهم" (العلي، 1999م، 248/02)، فنلمس من خلال موقفه هذا حرصه على تطبيق الشريعة الإسلامية ولا يخش في ذلك لومة لائم، وهذا هو الأصل في علماء الأمة.

زد على ما تقدم ذكره، فإن المصادر التاريخية أفادتنا بمبادرة أحد علماء المالكية المعنيين بدراستنا خلال العصر المملوكي، إذ قام الشيخ ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور المعروف بابن المنير (ت683هـ/1284م) بمراسلة ونصح الوزير الأسعد هبة الله بن صاعد الفائزي عن طريق الشعر قائلاً له:

إذا اعتل الزمان فمَنك يَرجو ***** بنو الأيام عافية الشفاء

وإن ينزل بساحتهم قضاءً ***** فأنت اللطف في ذاك القضاء
(المقريزي، 1991م، 654/01).

ومن الأمور التي تدل على قوة حضور علماء المالكية على الصعيد السياسي ما فعله السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (حكّم بين 693-741هـ/1294-1340م)، حينما لم يُنفذ عهد الخليفة العباسي الحاكم بأمر الله الذي توفي سنة 701هـ/1302م لابنه المستكفي بالله إلا بعد أن استشار الفقيه المالكي تقي الدين بن دقيق العيد قاضي القضاة يومئذ (ت702هـ/1303م)، حيث سأله: هل يصلح للخلافة أم لا؟، فقال الشيخ: نعم يصلح، فأنفذ السلطان العهد وقبِل ذلك (السيوطي، 1967م، 62/02).

خامسا: الخدمة في الجيش والجهاد في سبيل الله:

من خلال إطلاعنا على العديد من المصادر التاريخية، وجدنا عدداً مُعتبراً من المالكية انتسبوا للجيش وخدموا فيه، فهذا صفي الدين بن شكر المذكور سابقاً، أول عمل تقلّده هو مباشرة ديوان الأسطول الذي أقامه عليه الملك العادل (المقريزي، 1998م، 17/03) قبل أن يترقى إلى رتبة الوزارة .

وهناك من المالكية من شارك إلى جانب الجيش نتيجة التفاعل مع الأحداث السياسية والمعاصرة التي تمثلت في هجمات الفرنجة على الشام ومصر، ففي سنة 616هـ/1219م، ركز الفرنجة هجومهم على مدينة دمياط، وجدّوا في حصارها، وقطعوا الأقوات عن سكانها، فعمل الملك المعظم (حكّم بين: 615-624هـ/1218-1226م) وأخوه الكامل على إجلائهم وإبعاد خطرهم لكنهم كانوا متمسكين بالاستحواذ على مصر، وكسر شوكة المسلمين (ابن كثير، 1988م، 13/95).

وفي ظل تلك الأحداث تحركت مشاعر المسلمين الدينية والتهبت نخوتهم وغيرتهم على عقيدتهم، فاندفعوا إلى ساحة المعركة لرفع راية الجهاد مستبسلين في القتال، وضمنهم ثلاثة علماء مالكية، أولهم: عبد الله بن نجم بن شاس (ت616هـ/1219م) (المنذري، 1988م، 468/02)، والثاني: أبو القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله الجزولي النويري (ت616هـ/1219م) (الذهبي، 1987م، 298/44)، والثالث: أبو علي حسن بن عبد الله بن الخير التونسي، المعروف بالطويل (ت616هـ/1219م) (الذهبي، 1985م، 99/22)، فكلهم استشهدوا في هذه المعركة والتي تم بعدها الاستيلاء على دمياط من طرف الفرنجة، وجاء في وصف سقوطها لأبي شامة المقدسي قوله: "في شعبان سحريوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شعبان استولى الفرنج على دمياط، وكان المعظم قد جهّز إليها ابن الجرجي الناهض في خمسمائة رجل فهجموا على الخنادق فقُتل ابن الجرجي ومن كان معه وصقوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكانوا قد حموا الخنادق، وضعف أهل دمياط ووقع فيهم البلاء والفناء، وعجز الكامل عن نصرتهم فراسلوا الفرنج على أن يسلموا إليهم البلد ويخرجوا منه بأهاليهم وأموالهم، فاجتمع القساوسة وأحلفوهم على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البر والبحر وفتح لهم أهل دمياط الأبواب، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغدروا بأهلها ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسراً وباتوا تلك الليلة يفجرون بالنساء... وجعلوا الجامع كنيسة... ووقع على المسلمين كآبة عظيمة، وبكى الكامل والمعظم بكاء شديداً، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة، وقد تم استرجاع هذه المدينة في جمادى الآخرة من سنة 618هـ/1221م" (المقدسي، 1974م، ص 116-128).

وممن خدم من المالكية في الجيش أيضاً خلال العصر المملوكي، الشيخ شرف الدين بن محمد الدماميني الإسكندري (ت803هـ/1400م)، حيث تولى منصب ناظر الجيش (ابن تغري، 1992م، 23/13)، وهذا يعني القيام بأمر الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان في شأنها وأخذ توقيعه وموافقته على ما يقرره (القلقشندي، 1987م، 30/04)، وبالتالي فإن هذا المنصب السامي ناله عن خبرة ودراية

تامة به، كيف لا؟، وقد كان هذا ديدن السلاطين والحكام في تلك الحقبة، إذ كانوا يحرصون على تولية العلماء أصحاب الوعي والأمانة المناصب المهمة (الحجي، 1992م، ص 177).

ومن هؤلاء أيضا، الشيخ نور الدين علي بن يوسف بن مكّي بن عبد الله الدّميري ثم المصري (ت803هـ/1400م)، أصله من حلب، كان جل اهتمامه بالفقه على المذهب المالكي، ونال منصب القضاء وفقهه، ثبت عنه اهتمامه بالجهاد، حيث عقد العزم على محاربة اللنك، فانتسب إلى الجيش، وسافر مع العسكر من أجل ذلك، ولكن سيف المنية عاجله قبل وصوله (ابن العماد، 1985م، 52/09).

زد على هؤلاء أيضا، فقد أطلعنا المصادر التاريخية بأسماء بعض العلماء المالكية، الذين ثبت انتسابهم للجيش وخوض غمار الجهاد في سبيل الله خلال العصر المملوكي، ضد الوجود الصليبي والتتري في مصر والشام، فمنهم الشيخ علم الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن محمد قاضي دمشق (ت805هـ/1403م)، كان أبوه جنديا وسلك ابنه هذا المسلك أيضا، فيذكر أنه شهد وقعة للمغول، أصيب فيها بألة، وأسرت ابنته، فلما انزاح التتر عن البلاد رجع إلى حلب ثم دمشق، وتولى قضاءها وفق المذهب المالكي (ابن حجر، 1986م، 252/02).

ونشير في هذا الجانب إلى نقطة هامة، وهي شحذ همم المسلمين وحضهم على التجند والجهاد في سبيل الله، حيث كانت هذه المهمة منوطة بالعلماء باعتباره-أي الجهاد- من أفضل الأعمال، وجاءت في فضاله الآيات الكثيرة والأحاديث النبوية العديدة، وممن قام بهذه المهمة من المالكية المعنيين بدراستنا الشيخ ناصر الدين بن المنير (ت683هـ/1284م)، فقد حفظت لنا المصادر خطبته -البلغية والرائعة على حد قول أصحاب الاختصاص في الأدب- حين وقع الشام أسيرا في أيدي المغول سنة 658هـ/1260م، فقال: "الحمد لله الذي يرحم العيون إذا دمعت، والقلوب إذا خشعت، والنفوس إذا اتضعت، والعزائم إذا اجتمعت..." (اليونيني، 1992م، 208/04-209).

ونشير في نهاية هذه النقطة الخاصة بالجهاد في سبيل الله ضد التتار والصليبيين إلى أن هؤلاء العلماء تركوا بصمات واضحة، وآثار راسخة بتلك المواقف المشرفة التي كانت في وقت بلغت فيه القلوب الحناجر، وبلغت الخوف والخور بالناس مبلغا عظيما، فكان وقوفهم إلى جانب أمتهم بل وقيادتها بالخطب البلّغة، والانضواء تحت راية الجيش الإسلامي بردا وسلاما على الناس إلى غاية أن انكشف البأس.

الخاتمة:

يتضح لنا من كل ما سبق ذكره عن الأثر السياسي والعسكري لعلماء المالكية في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي أن علاقة المالكية بالسلطة اتسمت بالاحترام والتقدير، ونرجع هذا لعوامل متعددة منها إيمان الأمراء والحكام وتمسكهم بتعاليم الشريعة، وكذلك مستواهم الثقافي ورغبتهم في مجالسة العلماء والفقهاء، وأيضا مساندة الفقهاء للسلطة من خلال التوجيه والاستشارة، مثلما حدث مع صلاح الدين وابن عوف، والمساهمة في الجهاد والتفاعل مع الظروف السياسية المعاصرة،

من خلال ما تقدّم ذكره يتجلى لنا أن للمالكية أثرا واضحا في شتى مناحي الحياة السياسية والعسكرية، فلم يقتصر على الأعمال التي هي من صميم اختصاصهم كتعلم العلم ونشره، وإمامة الناس في الصلوات وإلقاء الخطب في الجُمع والأعياد والمناسبات، بل تجاوزوها وتفاعلوا مع قضايا الأمة وكانوا طرفا فعالا فيها، فحفظت لهم كتب التاريخ تلك المواقف المشرفة، وسجلت أسماءهم بماء الذهب، فصاروا هم القدوة لمن بعدهم.

تبين لنا أيضا من دراسة أثرهم في الحياة السياسية والعسكرية، أن المالكية لم يكونوا بمعزل عن الحكام ولا عن مجتمعهم، فقد كانوا يحتكون بهم من خلال تقلّهم في الخدمة السياسية والمناصب المتعددة العليا التي تُعرض عليهم وتُفضي بهم إلى التعامل مع مجتمعهم وخدمته، فتقلّدوا الوزارة، واشتغلوا بالسفارة، ومارسوا الوظائف السلطانية والخدم الديوانية، وانتسبوا إلى الجيش، وتصدّروا الصفوف، وحاربوا وجاهدوا أعداء الأمة من الصليبيين والمغول، كل هذا أبرز -بوضوح- أثر المالكية على الصعيد السياسي والعسكري .

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط01، 1413هـ/1992م.
- 2- ابن حجر أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني الشافعي (ت852هـ/1449م)، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق: د.محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط02، 1406هـ/1986م.
- 3- _____، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، 1392هـ/1972م.
- 4- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت808هـ/1406م)، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، لبنان، 1979م.
- 5- ابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت681هـ/1283م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط01، 1994م.
- 6- ابن شاکر محمد الكتبي (ت764هـ/1362م)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط01، 1974م.
- 7- ابن العماد عبد الحي بن أحمد العكري الحنبلي دمشقي (ت1089هـ/1679م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار بن كثير، دمشق، 1406هـ/1985م.
- 8- ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد برهان الدين اليعمري المالكي (ت799هـ/1396م)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق: د.محمد الأحمد أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.ط.
- 9- ابن كثير أبو الفداء القرشي دمشقي الحنبلي (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1408هـ/1988م.
- 10- ابن واصل جمال الدين (ت697هـ/1298م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د.جمال الدين الشيال، دار القلم، القاهرة، د.ت.ط.
- 11- أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن إسماعيل المقدسي دمشقي (ت665هـ/1267م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق: محمد زاهر الكوثري - مراجعة عزت العطار الحسيني، دار الجبل، بيروت، 1974م.
- 12- الأجرى أبو بكر محمد بن الحسين (ت360هـ/970م)، أخلاق العلماء، راجعه: إسماعيل بن محمد الأنصاري وعبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 1398هـ/1978م.
- 13- التنبكتي أحمد بابا بن أحمد (ت1036هـ/1652م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، عناية وتقديم: د.عبد الحميد عبد الله الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ليبيا، ط02، 2000م.
- 14- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مراجعة وتعليق د.شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة، د.ت.ط.
- 15- جمال أحمد جميل نجم، أحكام الرسل والسفرء في الإسلام، أطروحة ماجستير في الفقه والتشريع، إشراف الدكتور جمال حشاش، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2008م.

- 16- الحسيني أبو القاسم عز الدين أحمد بن محمد (ت695هـ/1295م)، صلة التكملة لوفيات النقلة ، ضبط النص وعلق عليه أبو يحيى عبدالله الكندري، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط01، 1426هـ/2005م .
- 17- حياة ناصر الحجى، صور من الحضارة العربية الإسلامية، دار القلم، الكويت، 1992م.
- 18- الدارمي أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن التميمي (ت255هـ/868م)، سنن الدارمي، تحقيق : فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، 1407هـ/1987م.
- 19- الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ/1347م)، تاريخ الإسلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط01، 1407هـ/1987م.
- 20- _____، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط03، 1405هـ/1985م.
- 21- السيد عبد العزيز سالم، الإسكندرية في العصر الإسلامي، 2008م.
- 22- السيوطي أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر (ت911هـ/1505م) ، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ط01، 1387هـ/1967م.
- 23- _____، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، د.ت.ط.
- 24- الصفدي خليل بن أبيك بن عبد الله (ت764هـ/1362م)، نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية، مصر، 1329هـ/1911م.
- 25- علي بن ظافر الأزدي (ت623هـ/1225م)، بدائع البدائنه، طبعة مصر، 1861م.
- 26- العلمي مجير الدين أبو اليمين عبد الرحمن بن محمد (ت928هـ/1521م)، الأسن الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، 1420هـ/1999م.
- 27- القلقشندي أحمد بن علي (ت821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق: د.يوسف علي طویل، دار الفكر، دمشق، ط01، 1987م.
- 28- المقرئ أبو العباس تقي الدين (ت845هـ/1441م)، المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط01، 1411هـ/1991م.
- 29- _____، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، تحقيق: د.محمد زينهم ومديحة الشراقوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط01، 1998م.
- 30- المنذري بن عبد القوي (ت656هـ/1258م)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط04، 1408هـ/1988م.
- 31- اليونيني قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت726هـ/1325م)، ذيل مرآة الزمان، بعناية: وزارة التحقيقات الحكومية والأمر الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط02، 1413هـ/1992م.